الوحـــدة الإسلاميـــة
المـــأزق والعمـــل

الشيخ جعفر المهاجر

شارك فيها المؤلف بمؤتمر الوحدة الإسلامية في طهران.

لا ريب أن أُطروحة وشعار ومطلب الوحدة الإسلامية تبدو اليوم أكثر ضرورة من أي وقت مضى. لأنها الردّ الوحيد الصحّي على الهجوم الإعلامي والسياسي والاقتصادي والعسكري الذي ترتكبه القوى الاستكبارية المُنتشية بقوتها العسكرية الهائلة. في مقابل افتقار المسلمين حتى إلى القوى المعنوية. التي نمن شرطها الأساس الكتلة البشرية الصلبة المتراصة، الواعية على ذاتها وذاتيتها.

ولعل من أسوأ ما يحصل الآن في هذا النطاق، أنه في ظل هذه الضرورة فإن الهجوم الاستكباري يحدث بالتوازي، ونكاد نقول بالتنسيق مع هجوم آخر يتجه نحو الحصن الإسلامي وصميمه ابتغاء تخريبه من الداخل. إنه يوجّه سهامه إلى مفهوم الإسلام بالذات. ويعمل على إزاحة مفهوم الكفر والشرك إلى داخل الإسلام. لتضيع الحدود بين هذا وذاك. ومعلوم أن الهوية الذات تُبنى وتتقوّم بالتمييز الواضح بين الأنا والآخر. مَن هو المسلم ومَن هو الكافر أو المشرك. فإذا اختل التمييز. وغامت التعريفات، ضاعت الهوية. وضاع معها كل أمل بالوحدة والتوحّد والصف المرصوص، والموقف الموحّد، وما إلى ذلك.

من الأمثلة على هذا النهج ونتائجه وآفاته، الفتوى التالية الصادرة عن الشيخ عبد العزيز بن باز، الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية، هذا نصّها.

يسأل المستفتي: هل يجوز الدعاء للرافضة الذين يقاتلون الإسرائيليين في جنوب لبنان بالنصر؟

الجواب: لا داعي لذلك.

السؤال الثاني: هل يجوز الدعاء بأن ينصر الله اليهود عليهم؟

الجواب: لا داعي لذلك.

إذا أخذنا بنص الفتويين كما وردتا، فإن من السهل أن نستنسخ أن المفتي يساوي، على الأقل بين الذين اغتصبوا أرض المسلمين وأخرجوهم من ديارهم، وقتلوا الآلاف الكثيرة منهم وما يزالون، وبين المسلمين الذين يقاتلونهم دفاعاً عن ديارهم وأنفسهم وأهليهم، وعلى كل حال فإن بلادهم،

بحكم موقعها في مواجهة العدو، ثغر من ثغور الإسلام، من حقه أن يكون مُرابطاً للمسلمين قاطبة.ولو أن مثل ذلك الكلام صدر في أي دولة لسيق قائله إلى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى، لأنه ممالأة للعدو في زمن الحرب. ولكنه صدر من أعلى موقع، ونُشر وأُذيع بكل وسيلة، ولم نسمع كلمة إنكار أو استنكار. مما يدل على أنه ليس فكرة شخص، وإنما هو موقف نظام سياسي- فكري. ولاسؤال: كيف يمكن أن يحصل ذلك، وتحت أي غطاء؟

الحقيقة أن هذه الفتوى ليست إلا مجرد تفصيل صغير في نظام فكري شامل. ونحن لم نوردها إلا بوصفها مثالاً بارزاً على رؤية أصحابها لمفهوم الإسلام، في مقابل مفهوم الآخر (الكافر، المشرك). وبالتالي رؤيتهم لأطروحة الوحدة الإسلامية، في ظل الأخطار المحدقة بالإسلام والمسلمين. ولذلك فإن علينا بالدرجة الأولى أن نبادر إلى التعريف بمنهجهم وتحليله، وبيان المعايير التي يلتزم بها ويتحرك على هديها. بالدرجة الأولى ابتغاء بيان مخاطره على قضية الوحدة الإسلامية، لا لشيء إلا لأن البحث قد عُقد تحت هذا العنوان. وإلا فالحقيقة أن أخطاره تطال مفهوم الإسلام ذاته في الصميم.

العالَم الفكري الوهابي هو، بكلمة، عالَم ألفاظ غير قابلة للتأويل. يفترض أن كل كلمة هي حقيقة. لا مجاز ولا استعارة ولا كناية ولا تشبيه. حتى لو ثبت بالدليل من عموم الكتاب، أو الحديث، أو من الملاحظة البشرية المباشرة، أن من الضروري صرف الكلام عن معناه الحقيقي، أو عمّا فهمه السلف، إلى معنى آخر. وللمفسرين والفقهاء وأهل الحديث من مختلف المذاهب معالجات معروفة لهذه المشكلات، تحت اسم التدبّر، بالنسبة لآي الكتاب العزيز أو الجمع بين الأخبار بالنسبة لنصوص الأحاديث. لكن الوهابيين ومن قبلهم أسلافهم الحنابلة وأتباع ابن تيمية ينفردون بمنهج مختلف، هو ذلك الذي أشرنا إليه. أدّى إلى نتائج لا يوافقهم عليها عامّة أهل القبلة. من مثل القول بأن لله تعالى يدين، وأن كلتا يديه يمين. وأن مكانه جلّ وعلا على العرش مستوٍ عليه استواءً مادياً. وأنه ينزل كل ليلة من على عرشه نزولاً حقيقياً. الأمر الذي أدّى عندهم إلى مشكلات سخيفة، من مثل البحث في مشكلة خلو العرش منه تعالى حين نزوله إلى الأرض. عالجها أحد كبارهم في صفحات مطوّلة (العثيمين: فتاوى العقيدة/ 30 وما بعدها).

ولو أن الأمر اقتصر على هذا اللغو الفارغ لهان. فـ إنك لا تهد ي من أحببت. وعلى كل حال، فإن تاريخ الفكر الفلسفي/ الكلامي عندنا إجمالاً حافل بهذا ومثله من التلهّي بما لا يُجدي، من مثل

مشكلة خلق القرآن، التي ذهبت فيها الأنفس، واختل بها النظام، واتسعت بها الفُرقة. لكنهم وهذا هو لُبّ الموضوع، يحكمون بكفر كل مَن خالفهم فيها.

إن ولع الوهابيين بتكفير أهل القبلة ووصفهم بالمشركين يُثير حقاً أقصى العجب، فهم قد اتخذوا منه شغلها الشاغل، لا يكلّون ولا يملّون. ولهذا أسبابه طبعاً، من بيئوية وتاريخية وسياسية. وليس من غرضنا الآن الدخول في بنيانها وتحليلها. لكننا نجد أن من المفيد أن نُشير إلى أنهم شققوا الشرك إلى شركين شرك أصغر، لا يُخرج عن الملّة (تصوّروا شركاً لا يتنافى مع إسلام صاحبه، بحيث إنه من الممكن أننتصور مُشركاً – مسلماً في الوقت نفسه) وشرك أكبر، يقول في العثيمين في كتابه (فتاوى العقيدة 10) بأنه المخرج عن الملّة. وحكم مرتكبه أنه مشرك كافر، مخلّد في النار، مرتد. يجب است ابة صاحبه ثم قتله.

تتسع قائمة (الشرك الأكبر) لمجموعة كبيرة من الأسباب. بعضها معاصي مما يوجب الفسق. ومنها مسائل اعتقادية محل خلاف. وبعضها آراء علمية جغرافية أو فيزيائية أو فلكية. إلى جانب تعبيرات عادية مما يدور على ألسنة الناس. نورد بعضها على سبيل المثال:

زيارة القبور، الحلف بالله تعالى كاذباً، ترك الصلاة حتى إهمالاً أو كسلاً، الاعتقاد بأن الله لا ينزل من السماء كل ليلة، القول بأن الله تعالى موجود في كل مكان وليس حصراً على العرش فوق سبع سماوات، الاسهزاء باللحية، المزاح بما يُفهمن من الكفر حتى لو لم يكن من قصد السامع، الاستجارة بالرسول (ص)، القول بأن الأرض كروية وليست مسطحة، القول بأن الأرض تدور حول الشمس وأن هذه ثابتة وليس العكس (راجع كتاب العثيمين: فتاوى العقيدة، في أماكن مُختلفة).

إذا طبّقنا هذه المعايير بحذافيها على المسلمين بكافة مذاهبهم، فكم سبقى منهم مُستحقاً لاسم مسلم ما على المرء هنا إلا يسأل نفسه مثلاً: كم من المسلمين يعتقد كالعثيمين بأن الأرض مُسطحة ثابتة، وأن الشمس تجري من حولها، تبعاً لشيخه ابن با، الذي مات وهو ينادي بأن الكفّار الملاعين لم يُشيعوا ويُذيعوا أن الأرض كروية تدور حول الشمس إلا تكذيباً للقرآن العزيز.

ومع ذلك نقول لهؤلاء المساكين أيضاً وأيضاً: إذا كنتم تُصرّون على هذه المعايير ، فلكم دينكم ولي ديني، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ولكن ماذا لو تسلّحت جاهلية العنف، أو هذا العُنف الجاهلي،

وأعدت واستعدت وشنّت الغارة على الإسلام في كل الدنيا، ابتغاء تطويعه لجهلها وضيق أُفقها وعنادها ورفضها كل حوار.

يجب أن نتوسّع في هذه النقطة، قبل أن نجيب على السؤال: ما العمل؟

منذ زهاء ربع قرن ، ومع ظفر الثورة الإسلامية في إيران، والأصدقاء الهائلة التي ترددت عنها بين المسلمين بمختلف مذاهبهم، ووضعت إيران ومدرسة أهل البيت (ع) في دائرة الضوء. وأسقطت بلحظة الجدار المذهبي العالي والمتين، الذي بنته السلطات المتوالية خلال قرون. أقول، مُذ ذاك اجتاحت معظم بلاد الإسلام حملة عاتية موجّهة ومُمولة بسخاء من قبل الهيئات الدينية الوهابية في الظاهر. ركّزت جهودها الدعائية على التجمعات الإسلامية المنتشرة الكبرى، في مصر وباكستان وأفغانستان وأندونيسيا وماليزيا وصولاً إلى بلاد الشيشان ثم لبنان والمغرب العربي وخصوصاً تونس والجزائر. فضلاً عن الجاليات الإسلامية المنتشرة في بلدان الاغتراب، خصوصاً أوروبة الغربية والولايات المتحدة الأمريكية.

ولقد استخدمت في هذه الحملة بالإضافة إلى صنوف الدعاية المعروفة مما سنصفه بعد قليل، مختلف أشكال الترغيب والترهيب. واخترقت كافة المؤسسات الدينية، وكثير من المؤسسات الثقافية، في كل تلك البلاد قاطبة تقريباً. بواسطة شراء رجالها والقيّمين عليها بالمال. إما شراء مساهمتهم وضلوعهم مباشرة في الجملة بدرجة أو بأخرى، وإما على الأقل بشراء سكوتهم. وهذا بالنسبة لقلة قليلة، استكبرت، حفاظاً على سمعتها الدينية أو العلمية عن الضلوع في هذه الجاهلية الجاهلة. ولكل من هذه المستويات ثمنها. والحقيقة أن هذه الحملة نجحت في اختراق البنية الثقافية العقيدية لمعظم هاتيك الأقطار.وخصوصاً مصر وأزهرها العريق. وبسطت سلطانها على كافة المؤسسات التربوية والتعليمية والإعلامية وعلى كثير من دور النشر وغالبها ممول من قبلهم، لتغمر الأسواق بطوفان من المطبوعات الرخيصة الثمن فضلاً عن أشرطة التسجيل المرئية والمسموعة. بل إنها لم تتورّع عن ارتكاب القتل، وما أهنه عند هؤلاء. وأبرزها قتل كاتب مصري معروف، يبدو أنه لم يستوعب المتغيرات التي جدّت على بلده، والقوى التي تتحكم بكل ما له علاقة بالإسلام فيه. فنشر كتاباً ذهب فيه إلى حلّيّة زواج المتعة في الإسلام. وبعد أيام عُثر عليه قتيلاً. ومصر كلها تعرف من ارتكب هذه الجريمة النكراء، ولماذا.

من الغني عتن البيان أن من الضروري العمل بكل الوسائل على تصحيح هذا الخلل.

أولاً: في جانبه الوجداني العقيدي. الذي شوّش مفهوم الإسلام عند أهله. وأدّى إلى تداخل غير مسبوق، في حجمه على الأقل بين الإسلام / الكفر / الشرك. بحيث إن عدداً كبيراً من المسلمين باتوا يعتقدون أن عدداً كبيراً من إخوانهم هم كافرون / مشركون. وهذا معناه تدمير الرابط الأساسي بين أهل القبلة. أي أن نصبح أهل ملل، بعد أن كنا أهل ملّة واحدة.

ثانياً: في جانبه السلوكي العملاني. وهو في قسم كبير منه حصيلة للخلل الأساسي الأول. ويتمثل في هذه الموجات الدموية التي اجتاحت أفغانستان وقدّمت ذريعة لما آل إليه أمر هذا البلد المسكين، على يد الاستكبار. وما تزال فاعلة في الجزائر. وهي نار مخبوءة تحت الرماد في أكثر الأقطار الإسلامية. وذريعة جاهزة عندما يأتي دورها في مخططات الاستكبار. اللافت أنها على الرغم مما تُظهره من مقدرة في التخطيط والتحفيز والتنفيذ، لم تمس شعرة واحدة من رأس عدو إسرائيلي حتى اليوم. وها هي تقدّم الذريعة تلو الذريعة للقوى المتربّصة بالإسلام والمسلمين لتنفيذ مخططاتهم تحت شعار مكافحة الإرهاب. بحيث يصحّ القول إنها المستفيد الأول.